النَّفَلَةُ

وَالمَمالِكُ الأَربَعُ

رالْف ضوميط




مَملَكَةُ الكُبَّةِ
عاصِمَةُ الكُبَّةِ
مَعبَرُ
البِياتريس
غابَةُ الجُذوعِ الطَّويلَةِ
فُندُقُ الوُجهاتِ
قَريَةُ فيليمون
قِمَمُ الغَربِ
عاصِمَةُ السِّباتِيِّ
الجِذعُ الكَبيرُ
بَحَيرَةُ السِّباتِيِّ
مَملَكَةُ السِّباتِيِّ


مَملَكَةُ الدّيناريِّ
عاصِمَةُ الدّيناريِّ
الدّيناريِّ الحُدوديِّ
جَبَلُ حادٌّ
عاصِمَةُ البَستوني
مَملَكَةُ البَستوني

النَّفَلَةُ

وَالمَمالِكُ الأَربَعُ

نُشِر هذا الكتاب للمرّة الأولى باللّغة الفرنسيّة لدى سمير دار نشر، في العام 2010، تحت عنوان:
Le trèfle et les quatre Royaumes

سنّ الفيل، الجسر الواطي، ص. ب. 55542 بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-653-6

النَّفَلَةُ

وَالـمَمالِكُ الأَربَعُ

رالْف ضوميط

ترجمَتهُ إلى اللّغةِ العربيّةِ إليسار صانِع أَسمَر

تَجدُرُ الإشارَةُ إلى أَنَّ اللَّفظَةَ الفَرَنسِيَّةَ **trèfle** تُستَعمَلُ لِلدَّلالَةِ إلى النَّفَلِ (وَهوَ جِنسُ أَعشابٍ مُعَمِّرَةٍ مِنَ الفَصيلَةِ القَرنِيَّةِ)، كَما تُستَعمَلُ لِلدَّلالَةِ إلى السِّباتِيِّ (في وَرَقِ اللَّعِبِ).

النَّفَلاتُ عُمومًا ثُلاثِيَّةُ الأَوراقِ، أَمّا رُباعِيَّةُ الأَوراقِ فَهيَ نَبتَةُ الحَظِّ في الـمُعتَقَدِ الغَربِيِّ، نَظَرًا لِنُدرَةِ وُجودِها.

سمير

التَّمهيدُ

في البَدءِ، كانَ العالَمُ.

قُسِمَ هذا العالَمُ إلى أَربَعِ مَمالِكَ: مَملَكَةِ البَستوني، حَيثُ تَكشِفُ الجِبالُ عَن أَسنانِها (وَلَيتَها تَضحَكُ)؛ مَملَكَةِ الكُبَّةِ، حَيثُ التِّلالُ كَفَقاقيعِ زَبَدٍ تَكادُ تَطيرُ لِشِدَّةِ خِفَّتِها؛ مَملَكَةِ الدّينارِيِّ، حَيثُ الـمَنازِلُ كَعُلَبٍ صُفَّت في أَحياءٍ هِيَ كَعُلَبٍ أَكبَرَ بِقَليلٍ صُفَّت في مُدُنٍ هِيَ كَعُلَبٍ... وَأَخيرًا مَملَكَةِ السِّباتِيِّ، حَيثُ تَبدَأُ قِصَّتُنا.

كانَت هذِهِ الـمَمالِكُ شَديدَةَ التَّبايُنِ، حَتّى إنَّها بَدَت أَربَعَةَ عَوالِمَ. وَما يَزيدُ الطّينَ بِلَّةً أَنَّ كُلَّ مَملَكَةٍ كانَت تَتَصَرَّفُ وَكَأَنَّ الثَّلاثَ الأُخرى غَيرُ مَوجودَةٍ. فَجَهِلَ بَعضُها بَعضًا، وَتُرِكَت كُلٌّ وَشَأنَها، كَمَن تَجاوَروا وَباعَدَ بَينَهُم قَليلٌ مِنَ الخَجَلِ وَالخَوفِ.

لَقَد عَرَفَ الـمُواطِنونَ في مَملَكَةِ الكُبَّةِ بِوُجودِ مَساراتٍ غَربًا تُؤَدّي إلى مَملَكَةِ الدّينارِيِّ، وَمَعَ ذلِكَ، نادِرًا ما سَلَكوها، كَي لا نَقولَ لَم يَسلُكوها مُطلَقًا.

كَما نَسِيَ الـمُواطِنونَ في مَملَكَةِ الدّيناريِّ أَنَّ الرُّؤوسَ الحادَّةَ الَّتي يَرَونَها في البَعيدِ تَعودُ إلى جِبالِ مَملَكَةِ البَستوني العِدائِيَّةِ.

وَإذا نَمَت بَعضُ الأَزهارِ عِندَ حُدودِ مَملَكَةِ البَستوني، فَما كانَ يَخطُرُ بِالبالِ قَطُّ أَنَّها قَد تَكونُ آتِيَةً مِن أَراضي الـمَملَكَةِ الـمُزهِرَةِ الـمُجاوِرَةِ: مَملَكَةِ السِّباتِيِّ.

كانَت كُلُّ مَملَكَةٍ تَشُقُّ طَريقَها في مُعتَرَكِ الحَياةِ عَلى هَواها، وَتَخضَعُ لِقَوانينِها الخاصَّةِ، وَلا تَجِدُ حَقًّا مِن دَواعٍ لِلتَّدَخُّلِ في شُؤونِ الـمَمالِكِ الأُخرى.

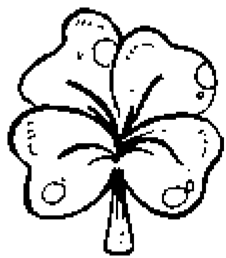
سَوفَ تُتاحُ لَكُم في هذِهِ القِصَّةِ، فُرصَةُ زِيارَةِ هذِهِ الـمَمالِكِ كُلِّها...

لكِن، في الوَقتِ الحاضِرِ، تَبدَأُ مُغامَرَتُنا عِنْدَ الطَّرَفِ الشَّرقِيِّ مِنَ العالَمِ، في مَملَكَةِ السِّباتِيِّ الـمُزهِرَةِ، حَيثُ يَعيشُ الشّابُّ فيليمون.

الجُزءُ الأَوَّلُ

أَوَّلُ نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ

1
أَصبَحَ فيليمون باحِثًا



إرتَدى فيليمون سُترَةَ العُمّالِ السِّباتِيِّينَ الفَيروزِيَّةَ اللَّونِ، وَلكِنَّ شَعرَهُ الأَشعَثَ، كانَ يَجعَلُهُ يَبدو مُراهِقًا. حَمَلَ حَقيبَةً عَلى الكَتِفِ، وَضَمَّت قَبضَتُهُ بِعَزمٍ مِقراضَهُ. كانَ المِقراضُ بِالتَّأكيدِ الشَّيءَ الأَكثَرَ انتِشارًا فِي مَملَكَةِ السِّباتِيِّ، وَيُستَخدَمُ لِقَطفِ النَّفَلِ بِعِنايَةٍ.

– بِاحتِرافِيَّةٍ! قالَ والِدُ فيليمون:

كانَ هذا الرَّجُلُ ذو الشّارِبِ الأَشيَبِ، واقِفًا أَمامَ بابِ بَيتِهِ، يَحمِلُ بِيَدَيهِ مِقراضَهُ الخاصَّ، الَّذي رافَقَهُ يَومِيًّا مُنذُ أَكثَرَ مِن أَربَعينَ عامًا.

أَمّا والِدَةُ فيليمون، الَّتي كانَت رِقَّتُها تَنسَجِمُ وَثَوبَها الـمُزَركَشَ بِالأَزهارِ، فَصَحَّحَت قائِلَةً:

– بِحُبٍّ! ثُمَّ أَضافَت: لا تَذهَبْ أَبعَدَ مِن تِلالِ الغَربِ الأَربَعِ، يا بُنَيَّ!

فَقالَ الوالِدُ بِتَذَمُّرٍ:

– لِابنِنا مِنَ العُمرِ ما يَكفي لِمَعرِفَةِ قَوانينِ الـمَملَكَةِ...

وَكَذلِكَ إميليا، أُختُ فيليمون الصُّغرى، ذاتُ الشَّعرِ الشَّبيهِ بِالتِّبنِ، وَالَّتي لَم تَكُنْ أَقَلَّ فَخرًا بِأَخيها الأَكبَرِ، فَقَد قالَت:

– آهِ، هذا أَكيدٌ!

لَم يَكُنْ فيليمون لِيَأمَلَ بِطَقْسٍ أَكثَرَ اعتِدالًا في يَومِ عَمَلِهِ الأَوَّلِ، فَقَد كانَتِ السَّماءُ صافِيَةً، وَالنّورُ ساطِعًا. وَكانَ خَبَرُ نُمُوِّ آلافِ النَّفَلاتِ الجَديدَةِ، خِلالَ اللَّيلِ، عَلى التِّلالِ الأَربَعِ الَّتي تَحُدُّ الـمَملَكَةَ، قَدِ انتَشَرَ مُنذُ الصَّباحِ. آلافٌ! إِذًا، هُناكَ حَظٌّ وافِرٌ بِالعُثورِ أَخيرًا عَلى نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ.

قالَ فيليمون مُراوِغًا، بَينَما كانَت عَيناهُ مُسَمَّرَتَينِ في الأُفُقِ الَّذي يَتَخَفّى خَلفَ التِّلالِ الـمَذكورَةِ:

– لا تَقلَقوا عَلَيَّ.

كانَ فيليمون قَد حَلُمَ في صِغَرِهِ بِأَلّا يَنتَهِيَ بِهِ الأَمرُ باحِثًا عَن نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ.

في صِغَرِهِ، تَسَنّى لَهُ أَن يُمضِيَ بِضعَةَ أَيّامٍ في عاصِمَةِ الـمَملَكَةِ، حَيثُ رَأى إحدى تِلكَ الآلاتِ الـمَلأى بِالعَجَلاتِ وَالأُسطُواناتِ، وَالَّتي تُستَخدَمُ لِاستِنساخِ نُصوصٍ. لَقَدِ افتُتِنَ بِها. فَالأَوراقُ الـمُغَطّاةُ بِالحِبرِ الأَسوَدِ تَرَكَت فيهِ انطِباعًا عَظيمًا. وَلَدى عَودَتِهِ إلى الـمَنزِلِ أَخبَرَ والِدَيهِ عَنها.

– أَتَمَنّى كَثيرًا أَن أَصنَعَ آلَةً مُماثِلَةً، عِندَما أَكبُرُ.

فَقالَ الوالِدُ مُتَذَمِّرًا:

– إذا عَثَرْتَ عَلى نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ، وَوَضَعْتَ الجائِزَةَ في جَيبِكَ، كَلِّمْتَني عَن هذا كُلِّهِ.

وَقالَتِ الوالِدَةُ مُلَطِّفَةً:

– سَيَنسى الفِكرَةَ مَعَ مُرورِ الوَقتِ.

تَجدُرُ الإشارَةُ إلى أَنَّ مِهنَةَ باحِثٍ عَن نَفَلٍ هِيَ، بِاستِثناءاتٍ نادِرَةٍ تَقريبًا، المِهنَةُ الوَحيدَةُ في الـمَملَكَةِ.

كانَ مَلِكُ السِّباتِيِّ رَجُلًا كَريمًا. لكِنَّ هاجِسَ البَحثِ الـمُضنِيَ، لِلعُثورِ يَومًا عَلى نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ عَلى أَراضيهِ، لَم يُفارِقْهُ قَطُّ.

في مَملَكَةِ السِّباتِيِّ، النَّفَلُ مُتوافِرٌ بِشَكلٍ طَبيعِيٍّ.

أَمّا إذا تَكاثَرَتِ النَّفَلاتُ ثُلاثِيَّةُ الأَوراقِ هُنا وَهُناكَ وَفي كُلِّ مَكانٍ حَيثُ يُمكِنُها أَن تَنبُتَ، فَإِنَّ رُباعِيَّةَ الأَوراقِ كانَت نادِرَةً جِدًّا. نادِرَةٌ؟ لَقد طالَ البَحثُ عَنها، وَفي الحَقيقَةِ، لَم يُعثَرْ عَلى واحِدَةٍ مِنها قَطُّ.

وَلا يُعزى السَّبَبُ إلى عَدَمِ الـمُحاوَلَةِ، وَلكِن، مُنذُ أَن بَدَأَ الباحِثونَ سَعيَهُم، لَم يُحَقِّقْ أَيٌّ مِنهُمُ اكتِشافًا.

كانَ مَلِكُ السِّباتِيِّ يُزَوِّدُ سُكّانَ الـمَملَكَةِ بِالغِذاءِ وَالرِّعايَةِ وَبِكُلِّ ما هُوَ ضَرورِيٌّ لِلحَياةِ، عَلى أَن يَهتَمَّ الجَميعُ بِالبَحثِ، وَالبَحثِ، وَدائِمًا البَحثِ عَن تِلكَ النَّبتَةِ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ، الَّتي مَعَ مَرورِ أَجيالٍ، باتَ يُشَكُّ في وُجودِها. وَمَعَ مُضِيِّ السَّنَواتِ، أَضنى هذا السَّعيُ الباحِثِينَ. وَحدَهُمُ الـمُبتَدِئونَ، الـمُفعَمونَ بِاعتِدادِ الشَّبابِ، وَذَوو العَزائِمِ الصّادِقَةِ ظَلّوا واثِقينَ بِأَنَّ الحَظَّ سَيُحالِفُهُم.

في مُراهَقَتِهِ، راوَدَت فيليمون أَحلامٌ أَكثَرُ انطِلاقًا.

فَكانَ يُرى أَحيانًا يَقفِزُ مَرِحًا بِرِفقَةِ تِلكَ الـمَجموعَةِ مِنَ الشُّبّانِ سَيِّئَةِ السُّمعَةِ، الـمُسَمّاةِ «زُمرَةَ الوُجهاتِ الأَربَعِ»... رَبَطَ بَينَ أَعضاءِ تِلكَ

الزُّمرَةِ الصَّغيرَةِ رَفضُهُم أَن يَصيروا باحِثينَ عَن نَفَلٍ. وَكانَ والِدُ فيليمون يَستَقبِحُ الأَمرَ وَيَقولُ لَهُ:

- أُولئِكَ الـمُشاغِبونَ، لا تَصلُحُ مُعاشَرَتُهُم. وَخَلفَ ظُهورِهِم الخَدّاعِ كَفَلاسِفَةٍ كِبارٍ، إن رَفَضوا أَن يَكونوا باحِثينَ عَن نَفَلٍ كَكُلِّ سِباتِيٍّ مُحتَرَمٍ، فَإِنَّهُم يَفعَلونَ ذلِكَ بِداعي الكَسَلِ!

- هُم، عَلى الأَقَلِّ، يَستَحسِنونَ فِكرَةَ أَن أَصنَعَ آلَةً تَـ...

فَقاطَعَهُ والِدُهُ قائِلًا:

- تَـ تَـ تَـ! إذا كانوا يُمضونَ الوَقتَ تَحتَ السِّنديانَةِ الكَبيرَةِ، وَهُم يُصغونَ إلى غِناءِ ذلِكَ التّروبادورِ الَّذي يَرأَسُهُم، فَلِكَي يَدَّعوا أَنَّهُم مُنشَغِلونَ، بَينَما عَلَيهِم أَن يَنشَغِلوا بِإعدادِ أَنفُسِهِم لِلمِهنَةِ.

وَمَعَ مُرورِ الزَّمَنِ، أَذعَنَ فيليمون لِحُجَجِ والِدِهِ.

بَدَأَ فيليمون يَومَ عَمَلِهِ الأَوَّلَ بِحَماسَةٍ كانَت سَتُدهِشُهُ قَبلَ بِضعِ سَنَواتٍ قَريبَةٍ.

لِكُلٍّ مِن سُكّانِ الـمَملَكَةِ في سِنِّ العَمَلِ مِقراضُهُ الخاصُّ. أَمّا ذاكَ الَّذي حَمَلَهُ فيليمون فَكانَ في السّابِقِ لِعَمِّهِ مَرقُس. بِأَمرٍ مِنَ الـمَلِكِ، صودِرَت أَداةُ العَمِّ لِلمُدَّةِ الباقِيَةِ مِن حَياتِهِ... غالِبًا ما حاوَلَ فيليمون

مَعرِفَةَ جَوهَرِ تِلكَ القِصَّةِ، وَلكِن، كانَ في بَيتِهِ تَكَتُّمٌ حَولَ ما يُدعى «قَضِيَّةَ العَمِّ»... إذ إنَّها لا تَعنيهِ، وَفقَ ما كانَ يُقالُ لَهُ.

في ذلِكَ الوَقتِ، تَقَدَّمَ فيليمون بِثِقَةٍ مُبتَعِدًا شَيئًا فَشَيئًا عَن بَيتِهِ. كانَ شَعرُهُ الـمَنفوشُ يَنسَدِلُ أَحيانًا لِيُغَطِّيَ عَينَيهِ. وَكانَ بِإمكانِهِ أَن يَرى، لَوِ التَفَتَ إلى الوَراءِ، أُختَهُ وَهيَ تُشيرُ صائِحَةً: «سَيَنجَحُ...!» وَكَذلِكَ أُمَّهُ، الَّتي كانَت لاتَزالُ واقِفَةً عِندَ البابِ، حَيثُ بَقِيَت بِدونِ شَكٍّ حَتّى غابَ عَن ناظِرَيها. كَكُلِّ الأُمَّهاتِ السِّباتِيّاتِ، كانَت أُمُّ فيليمون في قَرارَةِ نَفسِها، واثِقَةً بِأَنَّ ابنَها سَيَكونُ أَوَّلَ سِباتِيٍّ يَعثُرُ عَلى نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ. آهٍ! لوِ استَطاعَت أَن تَكونَ عَلى خَطَإٍ...

بَعدَ أَنِ اجتازَ فيليمون مَسافَةً طَويلَةً مِنَ الطَّريقِ، لَم يَعُدْ يَرى بَيتَهُ. كانَ النَّفَلُ يَفتَرِشُ جانِبَيِ الطَّريقِ، وَلكِنَّهُ لَم يَتَوَقَّفْ يَمينًا وَلا يَسارًا، كَي يَرى عَن كَثَبٍ ما إذا كانَت وَرَقَةٌ رابِعَةٌ تُزَيِّنُ إحدى النَّفَلاتِ. بَل تابَعَ طَريقَهُ مُدرِكًا تَمامًا إلى أَينَ يَذهَبُ. بَعدَ بِضعَةِ كيلومِتراتٍ مِنَ السَّيرِ، التَقى عَمَّهُ هِراقليس. وَهوَ أَخو والِدِهِ وَيُشابِهُهُ بِشارِبِهِ.

– صَباحَ الخَيرِ فيليمون! أَراكَ تَرتَدي لِباسَ العَمَلِ! هَنيئًا لَكَ! تَعالَ إذًا ساعِدْ عَمَّكَ في حَقلِ النَّفَلِ هذا، الجَديرِ بِأَكثَرَ مِن عَينٍ ثاقِبَةٍ...

لكِنَّ فيليمون حَيّا عَمَّهُ وَتابَعَ طَريقَهُ حاسِمًا...

بَعيدًا، التَقى تيموثاوُس، الَّذي كانَ صَديقًا قَديمًا مِن زُمرَةِ الوُجهاتِ الأَربَعِ، وَفي الحالِ، أَخفى مِقراضَهُ خَلفَ ظَهرِهِ خَجَلًا، فَابتَسَمَ تيموثاوُس:

- بِإمكانِكَ أَن تُرِيَني إيّاهُ، أَيُّها الشَّقِيُّ! لا أُريدُ أَن أَلومَكَ عَلى عَمَلٍ يَقومُ بِهِ الجَميعُ. هذا شَأنُكَ... فَلَو عَرَفْتَ ما نَحنُ بِصَدَدِ إعدادِهِ لَفَعَلْتَ أَيَّ شَيءٍ لِلانضِمامِ إِلَينا.

رَدَّ فيليمون بِبَساطَةٍ:

- بَلِّغِ الآخَرينَ تَحِيَّتي الصَّباحِيَّةَ.

وَتابَعَ طَريقَهُ...

2
العَمُّ

بَعيدًا أَكثَرَ، التَقى فيليمون العَمَّ مَرقُس، وَهوَ نَفسُهُ صاحِبُ المِقراضِ سابِقًا. كانَ العَمُّ يَجلِسُ أَرضًا وَسْطَ نَباتاتٍ، وَقَد بَدا جَلِيًّا أَنَّهُ كَثيرُ الاِنشِغالِ بِشَيءٍ آخَرَ غَيرِ الـمُراقَبَةِ بَحثًا عَن وَرَقَةٍ رابِعَةٍ... كانَ مَرقُس السِّتّينِيُّ يَبدو كَعالِمٍ مَخبولٍ مَعَ شَعرِهِ الـمَنفوشِ، وَنَظّارَتِهِ السَّيِّئَةِ الإحكامِ، وَعَينَيهِ الجاحِظَتَينِ. كَما كانَ يَبدو بائِسًا غَريبَ الأَطوارِ، وَلا سِيَّما أَنَّهُ يَرتَدي دائِمًا وَبِعِنايَةٍ خاصَّةٍ لِلغايَةِ بَذلَةً خَضراءَ-كاكِيَّةً ذاتَ

أَزرارٍ ذَهَبِيَّةٍ، وَيُخاطِبُ الجَميعَ بِاحتِرامٍ، في كُلِّ آنٍ، حَتّى الأَطفالَ، ما كانَ يَدعو إلى مُبادَلَتِهِ بِالمِثلِ.

– فيليمون! تَعالَ انظُرْ هُنا!

تَرَدَّدَ فيليمون قَليلًا قَبلَ الِاقتِرابِ مِن مَرقُس. لَقَد خَشِيَ أَن يَستاءَ عَمُّهُ إذا ما رَأى مِقراضَهُ الـمُصادَرَ بَينَ يَدَي هذا الشّابِّ الـمُبتَدِئِ. غَيرَ أَنَّ مَرقُس أَلَحَّ عَلَيهِ قائِلًا:

– وَلكِنِ اقتَرِبْ، أَيُّها الشّابُّ!

قامَ فيليمون بِبِضعِ خَطَواتٍ مُمسِكًا المِقراضَ خَلفَ ظَهرِهِ، وَمَثَلَ أَمامَ مَرقُس.

– هَلّا تُمسِكُ هذِهِ، أَيُّها الشّابُّ؟

مَدَّ مَرقُس إلَيهِ يَدًا تَحمِلُ نَفَلَةً وَأَضافَ قائِلًا:

– هَيّا، أَمسِكْ هذِهِ! قَد تَطيرُ بَينَما أَهتَمُّ بِـ...

وَانخَفَضَ صَوتُهُ تَدريجِيًّا وَهوَ يُتابِعُ جُملَتَهُ، وَكَأَنَّهُ ما كانَ يُخاطِبُ إلّا نَفسَهُ.

أَمسَكَ فيليمون النَّفَلَةَ، وَراحَ مَرقُس يَحفُرُ في التُّربَةِ بِيَدَيهِ، مُتَمتِمًا كَلِماتٍ غَيرَ مَسموعَةٍ...

– ماذا تَفعَلُ، عَمّي مَرقُس؟

إكتَفى مَرقُس بِإلقاءِ نَظرَةٍ حَذِرَةٍ عَلى ابنِ أَخيهِ، وَمَدَّ يَدَهُ لِكَي يُعيدَ إِلَيهِ النَّفَلَةَ. وَضَعَها بَعدَ ذلِكَ فِي الحُفرَةِ، وَطَمَرَها بِالتُّرابِ، ثُمَّ قالَ بِبَساطَةٍ، مِن دونِ أَن يَشرَحَ مُناوَرَتَهُ الغَريبَةَ:

– ها قَدِ انتَهَيْتُ، يُمكِنُكَ الذَّهابُ الآنَ.

وَلِأَنَّ فيليمون قَد بَقِيَ مُسَمَّرًا هُناكَ، أَضافَ مَرقُس غاضِبًا:

– ماذا تُريدُ مِنّي، يا وَلَدُ؟

– عَمّي مَرقُس، أَبدَأُ اليَومَ مِهنَتي كَباحِثٍ عَن نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ. لَم أَعُدْ طِفلًا كَي تُكتَمَ عَنّي الأَسرارُ... لَقَد سُلِّمْتُ صَباحًا المِقراضَ الَّذي كانَ لَكَ فِي الماضي. كَيفَ تَمَّت مُصادَرَتُهُ؟

تَمتَمَ العَمُّ مَرقُس مُتَذَمِّرًا، مِن دونِ أَن يُجيبَ...

– جَيِّدٌ جِدًّا، أَنا ذاهِبٌ إذًا. وَلكِن، إذا كانَ مِقراضُكَ الَّذي بَينَ يَدَيَّ هُوَ ما سَيَقطَعُ أَوَّلَ نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ، فَلا تَأتِ مُطالِبًا بِحِصَّتِكَ مِنَ الـمُكافَأَةِ.

وَاستَأنَفَ السَّيرَ. وَما كادَ يَخطو مِئَةَ خَطوَةٍ حَتّى سَمِعَ خَلفَهُ:

– أَينَ تَنوي أَن تَعُدَّ أَوراقَ النَّفَلِ، أَيُّها الشّابُّ؟

إستَدارَ فيليمون فَرَأى عَمَّهُ مَرقُس قَد تَبِعَهُ.

– يُقالُ إنَّ آلافَ النَّفَلاتِ الجَديدَةِ قَد نَبَتَت عَلى التِّلالِ الَّتي تَحُدُّ الـمَملَكَةَ، إلى هُناكَ أَذهَبُ.

– لَن تَجِدَ هُناكَ نَفَلًا رُباعِيَّ الأَوراقِ أَكثَرَ مِن هُنا، أَيُّها الشّابُّ. فَالحَظُّ لا نَجِدُهُ بَل نَخلُقُهُ! وَكَذلِكَ الأَمرُ بِالنِّسبَةِ إلى نَبتاتِ الحَظِّ!

– ماذا تُريدُ أَن تَقولَ؟

كانَ مَرقُس حَتّى ذلِكَ الوَقتِ يَسيرُ قَريبًا مِنِ ابنِ أَخيهِ، وَلكِن بِخَطَواتٍ مُتَرَدِّدَةٍ وَمُتَرَنِّحَةٍ.

– مَضَت عُصورٌ عَديدَةٌ، وَمَلِكٌ بَعدَ مَلِكٍ يَأمُرُ بِالبَحثِ عَن نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ. قُلْ لي أَيُّها الشّابُّ، عَلى كَم نَبتَةٍ تَمَّ العُثورُ؟

– لَمّا يُعثَرْ عَلى واحِدَةٍ بَعدُ.

– لِماذا بِحَقِّ السَّماءِ نَترُكُ لِلطَّبيعَةِ مُهِمَّةَ صُنعِ وَرَقَةٍ رابِعَةٍ فيما نَستطيعُ أَن نَفعَلَ ذلِكَ بِأَنفُسِنا؟ آهٍ! لَقَد قُلْتُ لَهُ! قُلْتُ لَهُ أَلفَ مَرَّةٍ وَأَلفًا أُخرى!

– ماذا قُلْتَ وَلِمَن؟

– لِلمَلِكِ، تَبًّا! أَكَّدْتُ لَهُ أَنَّني أَستَطيعُ بِوَسائِلَ قَليلَةٍ أَن أَصنَعَ النَّبتَةَ!

وَذلِكَ الغَبِيُّ بَدَلَ أَن يُصغِيَ إِلَيَّ، صادَرَ مِقراضي!

- تُريدُ أَن تَقولَ إِنَّكَ كُنْتَ تَنوي أَن تَزرَعَ بِنَفسِكَ بَذرَةَ نَفلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ؟

- أَصَبْتَ!

- وَلكِنَّ هذا... هذا ضَربٌ مِنَ السِّحرِ! وَهذا يُخالِفُ قَوانينَ الـمَملَكَةِ كُلَّها! وَهذِهِ النَّبتَةُ الَّتي زَرَعْتَها لِلتَّوِّ... أَراكَ لَمّا تَتَخَلَّ عَن عَزمِكَ...

- سَأَنجَحُ، وَلكِنَّني في ذلِكَ اليَومِ سَأَحتاجُ إِلى مِقراضٍ، إِذ إِنَّ النَّفَلَةَ يَجِبُ أَلّا تُقطَفَ بِعُنفٍ عِندَما تَنبُتُ!

تَشَبَّثَ فيليمون بِمِقراضِهِ، وَقالَ مُهَدِّدًا:

- لا تَعتَمِدْ عَلى هذا أَبَدًا!

غَمغَمَ العَمُّ مُتَذَمِّرًا، وَتَظاهَرَ بِالرَّحيلِ...

تابَعَ فيليمون سَيرَهُ. كانَت ساعَةٌ مِنَ الوَقتِ تَفصُلُهُ عَن مُنحَدَرِ أُولى التِّلالِ الأَربَعِ.

إِلتَقى أَيضًا باحِثِينَ مُقَرفِصينَ يَتَفَحَّصونَ الحُقولَ، وَلكِنَّهُ شَكَّ كَثيرًا في أَن يَكونَ مُعظَمُهُم مُتَّجِهًا مِثلَهُ إِلى التِّلالِ. عِندَما بَلَغَ التَّلَّةَ الأُولى، وَجَدَ مِئاتٍ مِنهُم قَد سَبَقوهُ إِلى هُناكَ.

فَقَرَّرَ مُتابَعَةَ السَّيرِ بِاتِّجاهِ الثّانِيَةِ، حَيثُ وَجَدَ عَدَدًا أَقَلَّ مِنَ النّاسِ، وَلكِن أَيضًا أَكبَرَ مِن أَمَلِهِ بِتَحقيقِ اكتِشافٍ غَفَلَ عَنهُ الآخَرونَ. وَكانَ عَلى وَشكِ اختِيارِ القِمَّةِ الثّالِثَةِ عِندَما لاحَظَ أَنَّ الرّابِعَةَ تَكادُ تَكونُ خالِيَةً مِنَ النّاسِ. فَحَزَمَ أَمرَهُ وَاتَّجَهَ نَحوَها.

هُنالِكَ نَفَلاتٌ، مُتَناثِرَةٌ بَعضَ الشَيءِ، وَتَبدو مِنَ البَراعِمِ الفَتِيَّةِ. كانَت تُغَطّي التَّلَّةَ إلى حَدٍّ ما. أَخرَجَ فيليمون عَدَسَةً مُكَبِّرَةً مِن حَقيبَتِهِ، وَشَرَعَ يَعمَلُ وَقَلبُهُ يَخفُقُ.

عَلى الرَّغمِ مِن أَنَّ فيليمون لَمّا يَكُنْ قَد أَمضى سَنَواتٍ يَبحَثُ عَبَثًا، وَلَمّا يَكُنِ الـمَلَلُ قَد بَلَغَ بِهِ مَبلَغًا بَعدُ، إلّا أَنَّهُ كانَ يَشعُرُ بِالإحباطِ كُلَّما بَدَت لَهُ وَرَقَةٌ رابِعَةٌ لِنَفَلَةٍ، فَإذا هِيَ في الحَقيقَةِ إحدى الأَوراقِ الثَّلاثِ لِأُخرى. كانَ لا بُدَّ مِن أَن تُعَلِّمَهُ عَمَلِيَّةُ البَحثِ الأُولى هذِهِ الصَّبرَ. لَقَد تَقَصّى طَوالَ ساعَةٍ، فَساعَتَينِ، وَصَعِدَ إلى القِمَّةِ، كَما نَزَلَ الـمُنحَدَرَ الـمُقابِلَ، وَشَيئًا فَشَيئًا كانَ سَيَستَسلِمُ لِلعَودَةِ خائِبًا... غَيرَ أَنَّ الـمُبتَدِئَ، في يَومِ عَمَلِهِ الأَوَّلِ، بِقَدرِ ما يَكونُ مُتَحَمِّسًا يَكونُ مُثابِرًا، فَقَد تابَعَ فيليمون البَحثَ حَتّى الـمَساءِ وَبَلَغَ حُدودَ التَّلَّةِ، مِن دونِ أَن يَشعُرَ بِالسّاعاتِ تَمُرُّ، وَلا بِالشَّمسِ تَغيبُ... وَلكِن، عَبَثًا.

وَهوَ يَستَعِدُّ لِلعَودَةِ عَلى عُقبَيهِ وَإِعلامِ والِدَيهِ بِفَشَلِهِ الأَوَّلِ، جَلَسَ فيليمون بُرهَةً. فَلا ضَيرَ مِنَ الرّاحَةِ القَليلَةِ تَحَسُّبًا لِطولِ الطَّريقِ. كانَ قَدِ ابتَعَدَ كَثيرًا، وَباتَ يَحتاجُ إِلى ساعاتٍ عَديدَةٍ مِنَ الـمَشيِ.

تَمَدَّدَ.

وَفيما رَأسُهُ عَلى العُشبِ وَالأَزهارِ، أَخَذَ يُغمِضُ عَينَيهِ؛ عِندَما أُطبِقَتا نِصفَ إِطباقَةٍ، انفَتَحَتا فَجأَةً. خَفَقَ قَلبُهُ. وَبِحَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ، أَخرَجَ العَدَسَةَ الـمُكَبِّرَةَ مِن حَقيبَتِهِ. ما كانَ لِيُخطِئَ! النَّبتَةُ، مُنعَزِلَةٌ، وَتَتَمَوَّجُ مَعَ نَسيمِ الـمَساءِ! نَفَلَةٌ، فِي أَعلى ساقِها: واحِدَةٌ، اثنَتانِ، ثُمَّ ثَلاثُ... بَل أَربَعُ أَوراقٍ! تَنَفَّسَ فيليمون بِهُدوءٍ، وَأَغلَقَ عَينَيهِ ثُمَّ فَتَحَهُما مُجَدَّدًا، وَكَأَنَّهُ يَتَأَكَّدُ مِن أَنَّهُ لَيسَ نائِمًا عَلى العُشبِ، وَأَنَّ ما يَراهُ حَقيقِيٌّ كَالَّذي تَصيحُ بِهِ عَيناهُ! مِن دونِ أَدنى شَكٍّ! لَقَد عَثَرَ لِلتَّوِّ عَلى نَفَلَةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ! لَم يَستَطِعْ أَن يَحبِسَ صِياحَهُ.

- تَمَّ الأَمرُ! تَمَّ الأَمرُ الآنَ!

- أَتَسخَرُ مِنّي، أَيُّها الشّابُّ!؟

ظَهَرَ العَمُّ مَرقُس مِن خَلفِ الشَّجَرَةِ حَيثُ كانَ مُختَبِئًا، وَتَقَدَّمَ نَحوَ فيليمون بِخَطوَةٍ خاطِفَةٍ مُكَرِّرًا بِلا انقِطاعٍ:

- أَتَسخَرُ مِنّي ؟!

تَشَبَّثَ فيليمون بِمِقراضِهِ، خائِفًا مِن دونِ شَكٍّ، أَن يَسعى مَرقُس إلى نَسبِ الاِكتِشافِ لِنَفسِهِ. لكِنَّ العَمَّ كانَ كُلَّما تَقَدَّمَ تَحَرَّكَ بِحَذَرٍ أَكبَرَ، وَعِندَما انحَنى لِيَرى النَّبتَةَ، أَوشَكَ أَن يَذرِفَ دَمعَةً... وَلَم تُفارِقْها عَيناهُ إلّا بَعدَ ثَوانٍ طَويلَةٍ. إستَعَدَّ فيليمون لِقَطفِها وَالمِقراضُ في يَدِهِ، عِندَما فَجأَةً، صَحا العَمُّ مِن تَأَمُّلِهِ وَصاحَ:

- أَيُّها الشّابُّ! بِحَقِّ السَّماءِ، إلى أَينَ جِئْتَ بِنا؟

مُنشَغِلًا بِبَحثِهِ، مُنهَكًا مِنَ المَشيِ، مَفتونًا بِاكتِشافِهِ، لَم يَتَوَقَّفْ فيليمون لَحظَةً لِلنَّظَرِ إلى حَيثُ كانَ... فَالنَّباتاتُ الحَواشي لَم تَكُنْ جَميعُها مِنَ النَّفَلِ...



كانَ العَديدُ مِنها مُغَطًّى بِالشَّوكِ... وَإذا كانَت تِلالُ مَملَكَةِ السِّباتِيِّ الأَربَعُ الـمُقَوَّسَةُ لا تَزالُ مُنتَصِبَةً أَمامَ فيليمون وَعَمِّهِ، فَلَم يَكُنْ خَلفَهُما سِوى جِبالٍ صَخرِيَّةٍ ذاتِ أَشكالٍ قاسِيَةٍ... كانَ الـمَنظَرُ عِدائِيًّا، وَالِاخضِرارُ كَذلِكَ نادِرًا جِدًّا.

- أَيُّها الشّابُّ، أَسرِعْ إلى قَطفِ النَّبتَةِ! لَقَد وَجَدْتَ نَفَلَةً رُباعِيَّةَ الأَوراقِ، هذا مُؤَكَّدٌ، وَلكِنَّنا لَسْنا عَلى أَرضِ مَملَكَتِنا!

إرتَجَفَ فيليمون... أَمّا العَمُّ مَرقُس، فَأَمسَكَ المِقراضَ بِحَرَكَةٍ مُفاجِئَةٍ لِإنجازِ العَمَلِ عَنهُ. لكِنَّهُ ما كادَ يَقطِفُ النَّفَلَةَ حَتّى وَصَلَ رَجُلانِ راكِضَينِ، يَتَسَلَّحُ كُلٌّ مِنهُما بِرُمحٍ حادَّةٍ، وَيَرتَدي دِرعًا مَكسُوَّةً بِالـمَساميرِ. وَقَفَ الأَكبَرُ سِنًّا أَمامَ الشّابِّ وَعَمِّهِ.

- مَن أَنتُما، أَيُّها الغَريبانِ؟ أَنتُما في مَملَكَةِ البَستوني. ماذا تَفعَلانِ هُنا؟

الفِهرِس

الجُزءُ الثّاني

طَريقُ الصَّبِيِّ الرَّسولِ



وُلِدَ **رالْف ضوميط** في بَيروتَ، في العامِ 1985، وَهوَ يَنتَمي إلى بُرجِ الحوتِ. في الخامِسَةِ مِن عُمرِهِ، اجتازَ البَحرَ الأَبيَضَ الـمُتَوَسِّطَ مُبتَدِئًا ذَهابًا وَإيابًا غَيرَ مُنقَطِعَينِ بَينَ لُبنانَ وَفَرَنسا. في العاشِرَةِ مِن عُمرِهِ، اكتَشَفَ لَدَيهِ مَيلًا خاصًّا حِيالَ القِصَصِ وَالصُّوَرِ. وَعِندَما وَجَبَ عَلَيهِ أَن يَختارَ مِهنَةً، قالَ في نَفسِهِ: «أَوَدُّ أَن أَبنِيَ مَنازِلَ لِأَصدِقائي»، فَتَخَصَّصَ في الهَندَسَةِ المِعمارِيَّةِ. وَبَعدَ أَن قَرَأَ كِتابًا رائِعًا، قالَ في نَفسِهِ: «أَخيرًا، أَريدُ أَن أُنشِئَ كُتُبًا-مَنازِلَ»، فَتَخَصَّصَ في الرَّسمِ التَّوضيحِيِّ وَالشَّريطِ الـمُصَوَّرِ، في الـمَعهَدِ اللُّبنانِيِّ لِلفُنونِ الجَميلَةِ. وَمُنذُ ذلِكَ الوَقتِ، يَعمَلُ في مَيدانِ النَّشرِ، كاتِبًا وَرَسّامًا، قَليلًا في فَرَنسا وَكَثيرًا في لُبنانَ.

مُلاحَظَةٌ: أَحيانًا أُخرى، عِندَما يَنظُرُ إلى السَّماءِ، يُقولُ في نَفسِهِ: «حَسَنًا، في النِّهايَةِ، سَوفَ أُصبِحُ بِالأَحرى رائِدَ فَضاءٍ»... (عَمَلٌ لِلمُتابَعَةِ!).

أَشكُرُ فَريقَ عَمَلِ سَمير دار نَشر. فَبِفَضلِ أُولئِكَ العامِلينَ في الظِّلَ، كانَ إعدادُ هذا الكِتابِ مُتعَةً، لا بَل مُغامرَةً إنسانِيَّةً جَميلَةً.

كَما أَشكُرُ عائِلَتي، الّتي تُقَدِّمُ لي يَومِيًّا بَيتًا-مَشغَلًا رائِعًا.

وَعَلى حُضورِها الـمُهَدِّئِ، شُكرًا جَزيلًا مِنَ القَلبِ إلى تِلكَ الَّتي أُحاوِلُ، عَبرَ هذِهِ الوَسيلَةِ اللّائِقَةِ بَعضَ الشَّيءِ، أَن أَسلُبَ عَقلَها.

رالْف ضوميط

طُبِع هذا الكتاب في لبنان، لدى مطابع دار الكتب-دوتس، في كانون الثّاني (يناير) 2015.
جُلِّد لدى فؤاد البعينو للتّجليد ش.م.م.

عَلى غِرارِ زُمرَةِ الوُجهاتِ الأَربَعِ، اِصنَعْ لُعبَتَكَ الخاصَّةَ بِوَرَقِ اللَّعِبِ!

وَلِذلِكَ، اِنزِعِ الصَّفَحاتِ الكَرتونِيَّةَ بِمُستَوى الثُّقوبِ. وَمُستَعينًا بِمِقَصٍّ، قُصَّ الوَرَقَ وَالخَطَّ الـمُحيطِيَّ لِلعُلبَةِ مَتَّبِعًا الخُطوطَ الـمُنَقَّطَةَ. بَعدَ ذلِكَ، اِطوِ العُلبَةَ عَلى طولِ الخُطوطِ البَيضاءِ، مُثَبِّتًا الكُلَّ بِالغِراءِ.

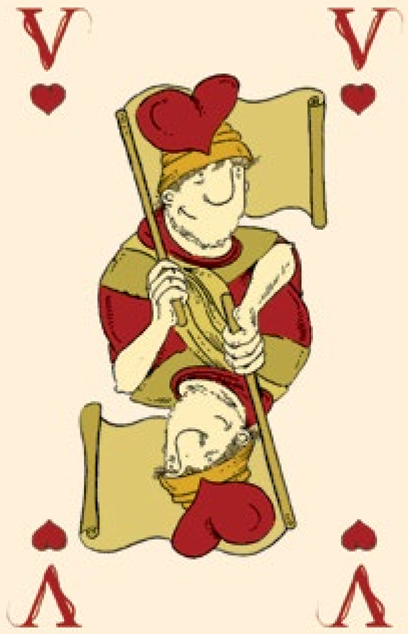
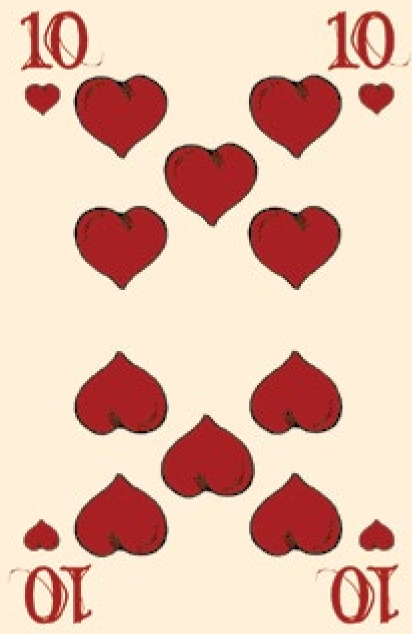


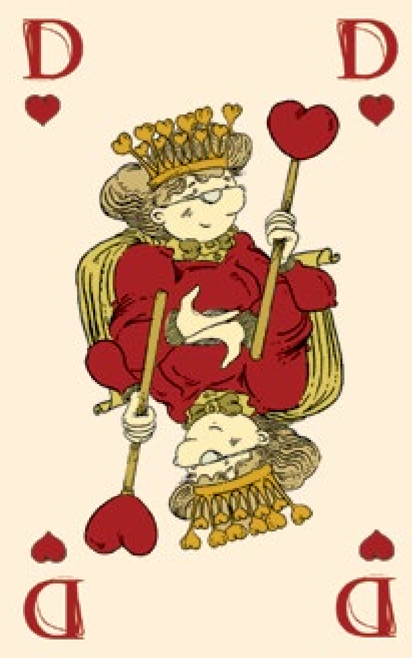

النَّفَلَةُ
والممالك الأربع
© Samir Éditeur 2015

النَّفَلَةُ
والممالك الأربع
© Samir Éditeur 2015

النَّفَلَةُ
والممالك الأربع
© Samir Éditeur 2015

النَّفَلَةُ
والممالك الأربع
© Samir Éditeur 2015


V

10

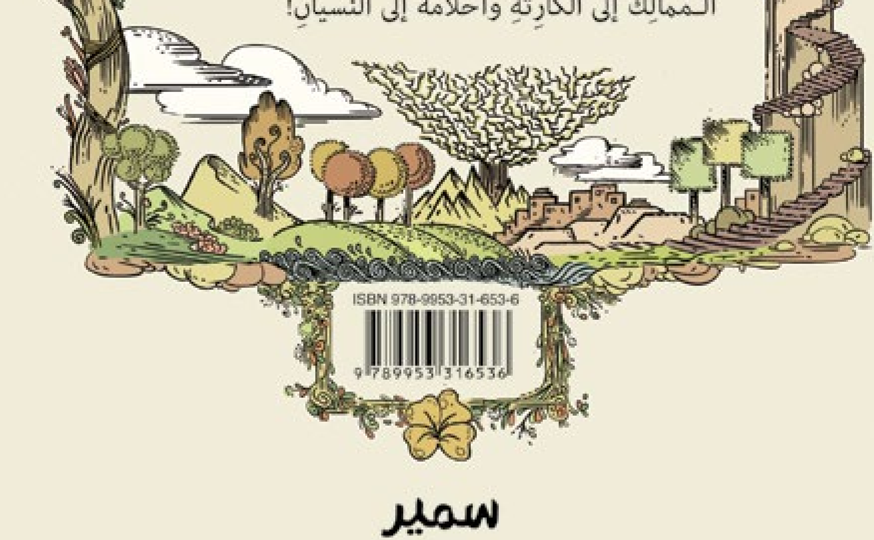
R

D



مَملَكَةُ الكُبَّةِ
عاصِمَةُ الكُبَّةِ
مَعبَرُ
البِياتريس
فُندُقُ الوُجهاتِ
غابَةُ الجُذوعِ الطَّويلَةِ
قَريَةُ فيليمون
قِمَمُ الغَربِ
عاصِمَةُ السِّباتِيِّ
الجِذعُ الكَبيرُ
بَحَيرَةُ السِّباتِيِّ
مَملَكَةُ السِّباتِيِّ


مَملَكَةُ الدّيناريِّ
عاصِمَةُ الدّيناريِّ
الدّيناريِّ الحُدوديِّ
جَبَلُ حادٌّ
عاصِمَةُ البَستوني
مَملَكَةُ البَستوني

لَيسَ في مَملَكةِ السَّباتِيِّ سِوى مِهنةٍ واحِدةٍ فَقَط، هِيَ البَحثُ عَن نَفَلةٍ رُباعِيَّةِ الأَوراقِ. وهذا تَقليدٌ عَجِزَت عَن فَهمِهِ المَمالِكُ المُجاوِرةُ، لا سِيَّما أَنَّ أَحَدًا لَم يَعثُرْ عَلى تِلكَ النَّبتةِ، مُنذُ بَدايةِ عَمَلِيَّةِ البَحثِ! ولَو أَنَّ الشَّابَّ السَّباتِيَّ الحالِمَ فيليمون لَم يُحَقِّقِ الإِكتِشافَ الأَوَّلَ، لَكانَ ذلِكَ أَفضَلَ، لِأَنَّ «البَطَلَ رُغمًا عَنهُ» عِندَما اكتَشَفَ نَبتةَ الحَظِّ، لَم يَعلَمْ أَنَّهُ سَيَقودُ المَمالِكَ إلى الكارِثةِ وأَحلامَهُ إلى النِّسيانِ!



ISBN 978-9953-31-653-6
9 789953 316536

سمير

www.samirediteur.com